من تبريز إلى إصفهان
العصر الصفوي في الميزان

د . جعفر المهاجر

(١)

سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢م استولى الشاه إسماعيل الصفوي الأوّل على تبريز وأعلنها عاصمةً له . مُتوّجاً بذلك سلسلة انتصاراته في نواحي آذربايجان . وما لبث أن أعلن أنّ المذهب الوحيد المقبول في دولته هو حصراً المذهب الإمامي الاثنى عشري . ثم ما لبث ، بعد أن استقرّت له الأُمور ، أن انطلق بعسكره المُظفّر شرقاً فاستولى على إصفهان ويزد وكرمان و خراسان . وبذلك وحّدَ إيران تحت تاجه بعد تسعة قرون من الشّتات .

(٢)

والحقيقةُ التي لم يلتفتْ إليها أحدٌ من الكثيرين الذين كتبوا في سيرة الشاه إسماعيل ، كتاباتٍ تأثّرتْ إلى حدٍّ بعيدٍ بأُسلوبه العسكري القاسي في إعمال سياسته ، . أنّ ذينك الإنجازيَن كانا مُتكامليَن ، لا معنى ولا فرصةَ لأحدهما دون الآخَر . لم يكُن من معنى ولا من فرصة لتوحيد إيران سياسيّاً دون تحييد النزاعات المذهبيّة الدمويّة المُتماديّة ، التي كانت مُجرّدَ غطاءٍ للانشقاقات الإثنيّة الأقواميّة . وكان الإقطاعيون والمغامرون العسكريّون يُسعّرونها لا لغرضٍ إلا لتكون وسيلتَهُم إلى السُلطة أو الحفاظ عليها . ولم يكن من معنى ولا من فرصة للتوحيد المذهبي ما لم يكن وسيلةً وباباً ينفتحُ على توحيد إيران سياسيّاً ، ولذلك تقبّلها الناسُ المُتعبون بأحسن القبول ، كما حصل بالفعل . المغزى الكبير في هذه السياسة ذات الوجهيَن المُتكامليَن أن إيران ما تزالُ حيث وضعَها الشاهُ إسماعيل قبل خمسة قرون . ثم أنّها خرجتْ سالمةً من العواصف الهائلة التي نزلتْ بالمنطقة في القرون المتوالية . صمدتْ للسطوة والغطرسة والجبروت العثمانيّ . وصمدتْ للاجتياح الغربي الشامل والتجزيئي للعالَم الإسلامي بعد انهيار الدولة العثمانيّة . فكانت الدولةَ الإسلاميّةَ

الوحيدةَ التي احتفظت بكيانها كاملاً ، باستثناء بعض الخسائر في الغرب . وستبقى إن شاء الله إلى أن يملأها عدلاً كما مُلئت ظلماً وجورا .

(٣)

والحقيقة الثانية التي ينبغي الالتفاتُ إليها أيضاً ، أنّ هناك الكثير من المُبالغة في تقدير الدور الشخصي للشاه إسماعيل في هذا كلّه ، دون أن ينتقصَ رأيُنا فيه شخصيّاً من تقدير دور دولته .

فمن المعلوم والثابت أنه كان إبّان ذلك الحِراك العسكري والسياسي التأسيسي فتىً غرّاً ، لم تعركه التجارب ، ولم يخبُر لا الشأن السياسي ولا الشأن العسكري . ولكنّه كان يتمتّع بولاءٍ غير محدودٍ من مُريدي أبيه وجدّه ، وخصوصاً جدّه ، من قبل . كان الجميع يتفانون في خدمته وطاعته والذّود عنه . ربما بسبب النهاية المأساويّة . النضاليّة لأبيه حيدر وجدّه جُنيد وأخويه إبراهيم وعلي يار، وأنّهُ بقيّةُ السيف من البيت الذي يدينون له بالولاء . أعتقدُ أنّ الفعل الحقيقي على مستوى القرار السياسي والتخطيط العسكري كان لنُخبةٍ من رؤساء الحركة الصوفيّة ، القادمين من بلاد الروم ، اي من الأناضول ، من مُريدي جدّه جُنيد بن علي بن إبراهيم بن موسى بن صفيّ الدين إسحق .

أمّا الفضل الحقيقي على مُستوى الإعداد فإنّه يعودُ إلى جُنيد في تحوّل الحركة الصوفيّة إلى حركة سياسيّة عسكريّة . وهو الذي ميّز أتباعه بـ "التاج الحيدري" القلنسوة الحمراء ذات الاثنتي عشر شقّة ، رمزاً للأئمة الاثنى عشر ، تُلفُّ حولها العمامة . الأمر الذي جعل العثمانيين يُطلقون عليهم ، على سبيل الهُزء ، لقب (قِزِلباش) . ومع ذلك فإنّ هذا اللقب سار وتغلّبَ أخيراً على الاسم الأصلي .

(٤)

ممّا لا ريب فيه أنّ التشيّعَ الذي أعلنه الشاه إسماعيل مذهباً وحيداً في دولته وعمل على فرضه على غير الشيعة في إيران بحدّ السيف ، ليس هذا التشيّع الفقهي الكلامي الذي نحن عليه ، والذي نضجَ وبلغَ أشُدّهُ في مراكز العلم قمّ وبغداد والحلّة على التوالي . وإنما هو لونٌ من التشيّع الشامي البسيط ، الذي استفاده جدّهُ جُنيد أثناء إقامته الطويلة في " كَلَز " من نواحي حلب . التي نقرأ حضورها حتى اليوم في الطريقة الكَلَزيّة ، وهي إحدى طريقتين في التشيّع الشامي المُسمّى اليوم

بالعلويّ في سوريّة . ومَن يقرأ ديوان خطايي ، وهو اسم التخلص للشاه إسماعيل في شعره بالتركيّة الآذريّة ، سيجدُ إشاراتٍ كثيرةٍ تدلُّ على تأثّره البالغ بهذا النمط من التشيّع الذي نشره جدّهُ بين مُريديه .

(٥)

هذه الصورة الواضحة لتطوّر الأحداث في تلك الفترة الانقلابيّة تطرحُ على المُتأمّل سؤالاً كبيراً :

كيف خاض الشاهُ إسماعيل ، أو بالأحرى فريقُ عمله من قادة القِزلباش المُتمرّسين ، هذه المغامرة المَهولَة التي تضعهُ وتضعُهُم في مقابل إيران كلّها بشيعتها وغير شيعتها ؟

حقٌّ أنّ قمّ والريّ ، اللتين حملتا في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة لواءَ الفكر الشيعي وخطتا به خطواتٍ واسعةٍ إلى الأمام ، . كانتا قد خبا ضوؤُهُما منذ قرون . وأن بعض خراسان ودامغان اللتين كانتا من قبلُ محلّ مُحاولةٍ للتأسيس لنمط حكمٍ شيعيٍّ على يد آخر الأُمراء السّربداريين ، الذي أعلن التشيّعَ الإماميَّ مذهباً لدولته ، وضرب السكة باسم الأئمة الاثنى عشر(ع) ، واستدعى الشهيد الأول ليقود مشروعه الطّموح ، . قد سقطتْ في العاصفة التيموريّة . ولكن التشيّعَ كان أملَ الفئات المسحوقة من شعوب إيران . وأن غير التشيّع كان مذهبَ فريقٍ لا يُستهان به من الشعوب الإيرانيّة .

وحقٌّ أيضاً أنّ الجميع قد استكانوا وخضعوا وخلدوا أمامَه إلى الأرض باديَ الرأي . لا لسببٍ إلا لأن إيران كلّها كانت على النحو الذي وصفناه من الشّتات . ولم يكُن فيها قوةٌ سياسيّةٌ قادرةٌ على الوقوف في وجه قوّة الشاه العسكريّة المُخلصة والحسنة التنظيم . ولكنّ استمرار ذلك على النحو الذي بدأ عليه كان من المُحال . من المُرجّح جدّاً ، بل وربما من المؤكّد ، أنه لو استمرّ الشاهُ على فرض مذهبه بالقوّة لأغرقَ ولغرقتْ إيرانُ ولغرقَ هو معها في بحرٍ من الدماء .

الخلاصُ من المأزق المحتوم جاء على يدِ رجلٍ غريب ، دخل إيران وحيداً قادماً من قريةٍ بعيدة اسمها الكَرَك جنبَ بعلبك شرق لبنان ، اسمه علي بن عبد العالي الكركي . كان الفاتحةَ لانتشارٍ واسعٍ للعلماء المهاجرين القادمين من جبل عامل في أنحاء إيران . فأدّوا ما لم يكُن بمُستطاع الشاه إسماعيل وفريق عمله أن

يُؤدّوهُ بالنظر لتركيبتهم الثقافيّة . ممّا بيّناهُ في كتابنا (الهجرة العامليّة إلى إيران) . وليس من خطّتنا الآن أن نخوضَ فيه بأكثر من هذه الإشارة .

(٦)

ذلك هو الباب الذي دخلتْ منه إيران إلى المُستقبل الذي أفضى إلى الجمهوريّة الإسلاميّة الصّاعدة ، التي نراها اليوم بحمد الله تسيرُ من ظفَرٍ إلى ظفَر ، ومن إنجازٍ كبير إلى إنجازٍ أكبر. مُروراً بفترة إصفهان البهيّة ، التي امتدّتْ منذ أن شادها الشاه عباس الكبير حقاً واتخذها عاصمةً له إلى أن اجتاحها الأفاغنة ، فألحقوا بها من الدمار المادّي والمعنوي ما يُذكّرُنا بتدمير بغداد على يد المغول . هنا أيضاً أقول إنّني لن أخوض بفترة إصفهان بأكثر من هذه الإشارة ، لأنّها أكبرُ من ذلك بكثير . وأتساءلُ بالمناسبة : لماذا لم نجِدْ حتى اليوم من رجالات إصفهان مَن يفكّر بتنظيم ندوةٍ علميّة على تاريخها المجيد ؟

والآن نسأل :

هل كانت الصفويّةُ خيراً أم شرّاً ؟

عُلماءُ التاريخ ، مَن كان منهم إيرانيّاً ومَن كان غير إيرانيّ ، يقولون عموماً بلسانٍ أو بغيره ، أنّها كانت خيراً . ذلك لأن المؤرّخين يفكّرون تفكيراً عمليّاً ، يأخذ بالاعتبار الإنجازات العمليّة الفعليّة ، وفي رأسها طبعاً الإنجاز الرئيسي بتوحيد إيران بعد قرون الشّتات وعذاباتها التي تفوق وصفَ الواصفين . ولولاه لكانت إيران تتجه إلى مصيرٍ مجهول ، ليس في صالح أحدٍ من أهلها .

أمّا المفكّرون الإيديولوجيّون فهم لا يرون إليها إلا أنّها شرٌّ في شرّ . ذلك لأنّهم يقيسون أعمالَها على الأفكار المقبولة لديهم . أي أنّهم يجعلون من أنفسهم مقياساً للخطأ والصواب والحق والباطل . والمثالُ الأكثر حِدّةً على هذا المذهب هو الشهيد الدكتور على شريعتي رحمه الله . الذي وضع كتاباً يُغني بعنوانه عن نصّه سمّاه (التشيع العلوي والتشيّع الصفوي) بل إنّه نشرَالقسمَ الأولَ منه تحت عنوان أكثرَ حِدّةً هو (التشيّع الأحمر والتشيّع الأسود) .

إنّ مُجرّد وضع "التشيّع الصفوي" في مُقابل "التشيّع العلوي" يعني أن "الصفوي" هو شئٌ آخَر غير التشيّع لعلي (ع) ، وهذا صحيح . ولكنّ ما سمّاه "التشيع الصفوي" يصدُقُ فقط على ما كان عليه الشاه إسماعيل ، وعمل على نشره

بحدّ السيف كما عرفنا . وقد ذهب معه ، كما عرفنا أيضاً . أمّا التشيّع الذي نشره بالتبليغ جمعٌ كبير من العلماء العارفين الأكفياء في إيران فهو تشيّع علويّ إجمالاً . ومن الظلم نبزه بـ "الصفوي". ولكن من الإنصاف لهذا المُفكّر الكبيرأن نقول أنّه طالما كرّرَ أمام خُلصائه ، ومنهم الشهيد مُطهّري رضوان الله عليه ، أنّه عازمٌ على إعادة النظر ببعض آرائه ، خصوصاً في أُمورٍ تاريخيّة وعقيديّة ، انتشرتْ على نطاقٍ واسعٍ عن مُحاضراتٍ ألقاها في "حسينيّة إرشاد"، وذلك الكتاب منها. ولكنّ شهادتَه المُبكّرة ، فضلاً عن السنوات التي قضاها قيد السجن ، قد حالت فيما يبدو بينه وبين عزمه . غفر اللهُ له ، وجزاه على عزمه ونيّته .

وهناك أمثلةٌ مُتعدّدة على مثل ذلك التوجّه الذي رصدناه عند الشهيد شريعتي لا يتسعُ المقامُ لمناقشتها ، أبرزهم لدى الأميركي من أصلٍ إيراني حامد آلجار . ولعلّ فيما قلناه كفاية لمَن ألقى السّمعَ وهو شهيد .

والحمد لله رب العالمين

—